



شباب بكمال جمالهم، وقوتهم ونضارتهم، أطفال بوجوه ملائكة ترفرف بجانحين من نور لم أر مثلهم في حياتي، صبايا كالحور العين اللواتي قرأت عنهن في الكتب المقدسة، وكم كان زوجي يحلم بهن ضاحكاً حين كان يقول لي ممازحاً "ابتلاني الله بعاهة مثلك في الدنيا، كي يكافئني بسبعين من الحسان في الجنة"، يا الله ما كلّ هذا الجمال، ما كلّ هذه النضارة؟

يشعر التّور في كل الأنهاء، وتهبّ نسائم رحمة ينشرح لها صدري، سعيدة أنا، مطمئنة، راضية، زال عنِي ألم كنت أشعر به وكأنه كابوس مزعج، هذا وجه ابن عمِي أعرفه، هذا وجه خالي، هذه صديقتي دلال، وهذا أحمد الأشلق، قرأت عنه الكثير، سمعت أنه استشهد، قالوا: إنه كان رجلاً بألف رجل، بطلٌ قلَّ أن يوجد الزمان بمثله، نصر الحق، دافع عن المظلومين، وشارك بمداواة الجرحى وحملهم على الأكتاف، ضحى بكلّ ما يملك فداءً لأهله وبلدِه، كم سار تحت القصف وتحت المدفع، ليصور مقطع فيديو يوثق جرائم المجرمين، من شارع إلى شارع، ومن حي إلى حي، يعبر لا خوف يلامس قلبه، ولا مدفع يصدّه عن مواصلة الدرب، كان للكثيرين الأخ والصديق والمعين والحاضن، حين ارتقى شهيداً بكته كل الجميلات وكلّ الأصدقاء، و بكته أم الحنain، حمص، لم يكن بكاء بل نزفاً، رأيت بعيوني أنهار الدماء تسيل تشكو مرارة الفقد ... حمص اتشحت بالسواد يوم رحيله، ووجمت وأطربت جزعاً، كم كان ظالماً ذلك الذي أبلغ عن وجوده في ذلك البيت الذي اتخذه مقراً لعمله في رفع الصور والفيديوهات على اليوتيوب والفيسبوك والقنوات الإعلامية الفضائية، كم سهر، وكم سار على الدرب حتى وصل، وغادر وراءه كلّ العواينية لتمعن في الفتاك برفاقه، وتصبّ كلّ قذارة الإنسان وكلّ بذور الشرّ داخله على كلّ جميل وكلّ حسن، وكلّ خير، غرقت طويلاً في تأمله واستغرقت بعالِم الذكرى التي لم أعد أدرك هل كانت حقيقة أم حلمًا، ولم يوقظني من تأملاطي سوى وجه أمي ... أمي ... صرخت ارتجف قلبي، فاضت عيوني، هرعت إليها، أمي خذيني إليك فإني ضائعة، احضني يا أمي فأنا تائهة، حائرة، أين أنا؟ أين أنت؟ ذكر أنك سافرت على غمامات راحلة وأخذت قلبي معك، وكنت أراقب السماء كلّ ليلة أحلم بعودتك ولقائك، قالوا لي: إنّ الله اختارك لتسكنني فسيح جناته، فهل هذه هي الجنة

المصادر:

يا أمي؟ هرعت إلى بكلّ شوق الكون، ضممتني، قبّلتني، وبكت، وغرقتنا في صمت الحنين، تحدثت دقات قلوبنا، تحدثت العيون، لكن اللسان عاجزٌ ، عاجزٌ، آآآاه كم اشتقت إليك يا حبيبتي! كم احتجت إليك، نعم كنت أصرخ من الألم، أتوسل، أستجيئ، أتوسل، و أنا ديك " دخيلك يا أمي" ، أذكر حين كنت أمرض وأناديك كنت تقولي لي: "لا تنادي يا أمي ... ونادي يا الله" ، لكنني في تلك اللحظة ... كنت قريبة مني أكثر، تذكرتك، شمنت رائحتك، كان وجهك يلوح لي، هو الوحيد الذي منحني الأمان وأنا على طاولة التشريح، تداخل سكاكيينهم بين ضلوعي، ويحفر رأسى مسامير يدقونها فيه، لم أعرف لماذا؟ لم أعرف ما ذنبي، لم أعرف أنَّ الإنسان يمكن أن يُعذَّب بهذه الوحشية، لم أكن أتصور وحوشاً بأشكال آدمية تتکاثر عليَّ، تجرني على الأرض الموجعة، أقاومهم بكلّ شراسة الأنثى، أنسكب أظفاري وأغرسها فيهم، فيغرسون مساميرهم في جسدي المنكك، أعضنَّ أيديهم القدرة بكلّ قوة الكراهة داخلِي، فيضربيوني بأسواطهم "يا ابنة العاشرة" ، سبوا فوقِ الماء المغلي، سلخوا وجهي، انتفضت ألمًا، تقيأت، وفجأة استسلم جسدي، لم يعد يشعر، لم يعد يقوى، و تکالبت علىَ الوحش يعلمونني معنى الحرية، هكذا سمعتهم يقولون، وغابت روحِي عن جسدي، لم أعد أرى سوى وجهك، أمّاه، كنت هناك، أقسم أني رأيتكم، ابتسمت لي، مددت لي يدك الحانية، أمسكتها بصعوبة، كما يمسك الغريق بيد الغطاس الماهر ينشله من بحر متلاطم الأمواج، ظلمات يغشاها ظلمات، وحين لمست يدك، حينها فقط، ابتسمت لي أطفال الحولة وحلقت حولي كمن يحتفل بي، يغدون، يحلقون، يرفرفون، لم أعد أرى آثار الدماء على وجوههم، لم تعد رؤوسهم مفصولة عن أجسادهم، لم تعد عيونهم محروقة، وشفاهم مطحونة، كانوا ملائكة نورانية، مطمئنة، سعيدة، فرحة، أعطوني بطاقة الدخول وأوصلوني إلى باب الآمان، كنت أحلم ... أحلم كم كان الحلم جميلاً لم أصحو منه إلا حين رأيت وجهك، لا أدرِّي أيَّ سرَّ في عيونك يا أمي، يجعلني أنزف كلَّ آلامي في حضنك، وأبكي ما شاء لي البكاء، على هذا الصدر، أخطَّ جراحاتي، وأنساها، فيصبح حضنك مستودع الذكريات الهازية من ذاتها، وبضعة زر واحدة من يدك الحانية ترسلين كل ذاكرة الألم إلى سلة المحنوكات الأبدية، فلا يبقى في القلب الصغير سوى حبك، ولا يلتمع في العين سوى الآمان بوجودك، ولا تسعُ الشفاه إلا حين تنطق اسمك: "اشتقت إليك يا أمي ... لا تتركيَّني بعد اليوم ... فليس لي وجود بعيداً عن حضنك ...